أريد بيتي الصغير

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

سليم النفار

«ابو تمام»

يافا....

الرحلة اتسعت، ومازال الغبار، على ظهور الخيل، يفتك بالندى، من هناك إلى هنا، والى هناك، فهاهنا، وحكاية، ما زال صفيرها، يطن فى أذن الفتى.

طال الزمان بنا، أم ترانا نطيل الزمان، بما لا نطيق من الرؤى؟

مالت طريق من طريق، والتوت فى النفير، غاية العدو، بغايات الصديق.

كنا نرتب الرغبات، وفق ساعة الرمل، غير أن سيقان القصب، أمسكت بالريح.

بيت صغير..... وساحة من هواء، ترقُص النعناع، من حين لحين، بعض وجنات من برتقال، أو برتقال يمسح خده كل فجر، بزفير موج.

بيت صغير..... لم أتحسس سخونته، وحدها القصيدة، صوّرته لي، وأبي الذي، أخذ اليفاعة، وامتطى موجا إليه، قال ذات يوم لي :

هنا غزلت شباكي الصغيرة، ونمت على ضفيرة الموج، أسعى إلى حصتي من الحياة.

لم يسعفه الوقت، لكنه أمال الطريق، ليأخذ حصته كلها من السماء.

بيت صغير..... لم أره، لم يراني، لكن جدتي التي طرزته لي، ذات مساء قالت : انه يحفظني عن ظهر قلب، كما التلاميذ تتلو النشيد.

ذات يوم.... رحلوا جميعاً، من قصائدهم، من مصائرهم، لم تكن نزهة، أو حاجة مؤقتة، لتغير المكان، فالساحة ما تزال ترقص النعناع، والموال..... غير أنهم قراصنة، فتحوا فوهة الموت على الوداعة، والخيال.....فاشرأب الذباب على شرفة البحر، وأي بحر كان..... يا ما كان ؟؟

لم أره..... لكنه ما زال، عطر الحكاية، في كل آيات الزمان، ما زال يبكى «عوليس» ويافا مثله، لم تزل تفرط نسيجها كلما اكتمل.

غزة.....

كان يا ما كان..... رجل يحتفظ بعين طفل، يسُرحها فى زوايا المكان.

ها هنا فى شرفة الحكاية، حكايات، يخاتلها النسيان دونما جدوى، فكيف ذلك..

والزمان هو الزمان ؟؟

بيت صغير..... على ياقته غيمة، وسقفه معلق بالمطر، عشبه وصل الحكاية حينما فاض الشرر، ها هنا فى شرط الله، كان الحالمون، منا، مثلنا، لا، لم يكونوا من حجر. ها هنا انتظروا يوما اثر يوم، غير أنهم ملوا الانتظار ففاضوا على الطريق، وفصلوا سماءهم من ضلوع الشجر، يعبدون الحلم ليلا، وفى النهار، حيث لا نهار، فى مسام الرمل ينتشرون، مخداتهم قلق المتنبي، أسرتهم وخز الإبر، لكنهم أشعلوا حكايتهم، فى السد يم، حينما ضجر الأمل.

منفى.....

كلما حاولت وصفه، تسقط دمعة، تفسد الألوان، كلما حاولت سرده وقعت فى المحظور، من شرط الرواية، فى الحبكة، أو فى التعريف، لهذا الزمان، أو ذاك المكان.

بيت صغير..... وحسب. ضلوعه الريح، وبابه فسيح للسؤال، كلما اقتضت الضرورة نقله، ينقل.... مثل قطة لا تستقر على صفيح.

بقجة صغيرة، وحسرة كبيرة... تكفيان زوادة للجريح.

هكذا اشتعل الأولاد، من بلاد إلى بلاد، سمائهم بلاغة، وأرضهم ميعاد.

هل يكفى هذا العمر، يا سليم، كي تلد الحقيقة سؤالها الكليم؟؟

ربما... وربما يقول البعض : انك بحاجة لولادة أخرى، وطفولة أخرى،

ومراهقة أخرى، تدرك كنه الحداثة فى السؤال.

هكذا ريح القصيدة، كلما اشتعل البياض، وطاف بك الأرق.

بيت صغير.... غير أن الشعر، أصغر، أن يحيط، بما فاض من شر..

ولربما قالوا : حكمة الحداثة، أن تروج وأن تموج / دونما النساء، كي يحلو النشيد... ولكنه أبدا، خلفك، ينفلت الموج، ويعلو صخب لا تريد.

ها هنا... منذ وعي الزمان، وعيت نفسك، دربت روحك، على طريق قصير، أنيق:

فيه مدرسة، وبيت، وبنت، كل صبح على خطاك تفيق.... تبث لواعجها إليك، كما شجرة عجوز تشكو النهر، من الظمأ... دونما خوف / فأي خوف فى ملكوت الهباء،

قد يصيب ؟؟

أيها المنفرد.... أيها المتقد

قل ما تريد، واسحب نشيدك، من نوتة التراب، فان أغنية أراها تفيق على

بلاد من سحاب.

هي الأيام، منك تمضي، وأحيانا إليك تجيء، هكذا كانت، وكنا /

غير أن الغزاة، غَيروا جداول التوقيت، وبعثروا فى خطاها، لحمنا، حلمنا.

ترى كم تتسع الأرض للشر ؟

ما زالت لغة الله فيك، رغم أنين الشيخ، ما زالت بوصلة الحب، دليلاً رغم السيف، فكم من قيس فيك يموت ويحيا.... وتحيا.

هي الأرض.....

المفجوعة تبكى، لكنها لا تؤوي أفعى، فاحمل بأسك وامض، تحت نشيد ك سيف النصر / امض، لا تبحث عن حاضرك الغائب، عن غائبك المقتول أنت نشيد المفجوعين.. فاضرب حاضرك الغائب منك، كي تلد التالي....غدك.....

نكبة تلو نكبة..... فلا تسلم زمامك، للشعار، وللنهار الفج.

أنت مذهول، بما قال الفلاسفة، أو بما رسم الساسة المحترفون، مذهول دونما غلال، فتمضي من سكين هذا، إلى سم ذاك.

طالما لم تغمض العين على مذلة، أو فكرة لا تعيد البيت، فاركب قلبك، الذي لا يغيب / لان الحنين على الحنين، شتاء لا ينام.

يا سيد الأحلام....

نكبة تلو نكبة.... وهم قوس الموت، يصطادون عشاق النهار، فى كل زاوية يفتحون

الليل : من فوهة دبابة، أو طائرة، أو جائرة.... ماذا عساهم يفعلون بعد هذا الموت ؟؟

موعد....

يفاجئهم حبك، ميقاتك، ذاك المنقوش على القلب /

موعد روحك، تاريخ الأشياء، المحفوظ : على الرمل، على الماء، يحفظ قلبك رغم العلة فى مرصد تلك الأنواء.

نكبة تلو نكبة....

وأنت أنت، كما أنت، طفل يمسح جبهة الله فى عناء التكوين، عاشق تأخذه التفاحة إلى اتساع الكون، لكنك اكتفيت بحيز صغير، بنهر... تقشر على ضفتيه رغبة الحياة.

أنت أنت.... لم تحد عن تكوينك، عن مواعيدك الأولى، ولم تنحن لشهوة الإلغاء..

فكم صنعت من الوداعة : طلقة ومسدسا، ونفخت فى الأسماء، غير هيئتها، من اجل يومك الأول، يومك الأجمل، فهل وصل البريد ؟

نكبة تلو نكبة...

وأنا هنا وحدي... وحدك، نفتش عن دفاتر القدماء، عن بطولات حفظناها:

فى دروس المطالعة، أو التاريخ، وربما لم تخل منها حصة الإملاء..

وحدي، وحدك، ندفع الضريبة عن طيب خاطر ولكن إلى متى نشد أجراس السماء، دونما ماء ؟؟

العطش يضنيني، يضنينا، ويسقينا ندامات من كربلاء.

غير أنني ما زلت اعرف : باب فكرتنا، وباب منزلنا، وسر نكبتنا فهل نشد غيمات الشتاء؟

لا ريب انه آت، ولكن ربما لم يصل النداء سروج الخيل، أو ربما الفرسان قد أنهكتهم «داحس والغبراء»

ربما..... ربما.... غير أنني ما زلت أريد بيتي الصغير، كما طرزته جدتي ذات مساء.

غيم على الورق.

بيت صغير....

يكفى لحل الصراع على القلاع، وامض لفك الاشتباك، على الشكل، فإنما المعنى بقاء. امض لعلاج سوءتك، عندما يحط الذباب على النهر، فها هنا لوزة لي، سأطعم الوافدين، وليس الغزاة العابرين قل لهم يا درويش أننا : ريش الأرض، ولحمها، والهواء الأثير.

عندما يحط الذباب على النهر، لم يعد كذلك، وسيقان النساء، لم تعد تأتى لتغسل ملح الليل.

فهن لم يأخذن الوقت الكافي، كي يفتحن نوافذهن، لريح القلب وأنا.... كذلك، منذ البدء، أحاول فرحاً، أيجيء بهذا الغيم ؟؟

سؤال.....

هذا سؤال، أقذفه بوجه الكون، وأضيف ثلاثا من حلفاني :بالله وبيتي ودمي الفاني

لست حزينا لزمان يمضى، لكنني أسال طهر النهر : هل من نافذة فتحت..

والأوجاع المزمنة : هل رحلت من عصب الفجر..حصة الهواء هل تأتى كما نشتهي،

أم سيظل د خان الحرب، يغطى وجه الله ؟؟

يا الله : تعبنا..... يا الله : ارحمنا..... يا الله :لا تدخلنا تجربة أخرى.

حصيدة خاسرة :

كانت أفراح الناس، وقفاً للبعض، لعكاز الباشا، وموسم غلته / ما زالت خناساً لا تجرؤ شقة الأرض، بوحاً فيها، حيث يفيض المعنى /

عن قامة باشا وحداثة عكازه.

آه.... أيتها الحصيدة الخاسرة، ابتعدي قليلاً، لا تفرطي حبر الدفاتر فى اتساع النهر. هاتى سطور الخيبة، افتحيها، ربما نمُر إلى ثغور ضالتنا، من لثغة طفل، يتهجى

السماء : نجمة، نجمة، أو فى اتكاء نبته، على طينها الهش.

ابتعدي.... لا تلوثي فضاء الغيمة القادمة... صحيح أنني ابن الخسارة الدائمة، غير أنني هنا، منذ الخسارة الأولى، نزلت من فردوسه، ألمع الأرض، بعد كل وقعة، واشطف وجه اللغة، بموجة، تجيد الغناء المنفرد.

آه... أيها المنفرد :

كل الخطايا تبدأ... من جراب حكايتك، من رفضك للعزلة، من عزلتك / فكم حواء ستغرى لهاثك للتوحد، وتسخط السماء عليك، كي تؤوب خسارة إليك، بانفرادها، دونما انفراد؟

وتبحث فى طينها، عن شكلك، عن لونك، وعن غيمة تنبت

"كشكول الذهب" للمتوكل طه نمط جديد من الكتابة تتمثل فيه الكرنفالية والحكمة

صدر حديثاً عن مؤسسة راية للإعلام والنشر في فلسطين، كتاب جديد للشاعر والأديب الفلسطيني المعروف المتوكل طه.

ويحمل الاصدار الجديد الذي يعتبر، المؤلف الثاني والثلاثين للشاعر طه، بين ديوان شعري، ونص نثري، ودراسة وبحث أكاديمي، اسم «كشكول الذهب»، ويقع في ٣٣٤ صفحة من القطع المتوسط ، وصمم غلافه الفنان الفلسطيني حسني رضوان.

هذا الكتاب يتحدث كأنه بانوراما تسلط الضوء على غير حدث أو واقع فنرى الكاتب يتحدث عن أيام النكسة والانتفاضة الكبرى والانتفاضة الحالية كما يقدم شهادته عن طفولته التي اصطدمت بالاحتلال والهجرة، ويتحدث ايضا عن ايام الجامعة وكيف كان الصراع مع الاحتلال والجدل بين الفصائل، ويتوقف الكاتب أمام ما وقع في غزة قبل عام مرجعا ما حدث إلى غياب النخب الفلسطينية وإلى حالة الفوضى والفراغ والهزيمة التي ينادي بضرورة مواجهتها.

ونلحظ ان المتوكل يقف طويلا أمام «النكبة » والمخيم وتداعيات ذلك الحدث المهول، ولا ينسى أن يلتقط الكثير من الاحداث ليعقب عليها، ونلمس في هذا الكتاب القدرة المدهشة على اضاءة مقاطع الحياة اليومية لابناء فلسطين المحرومين من دخول مدينتهم المقدسة والذين يواجهون العنت والاضطهاد على الحواجز ويتعرضون لسياسات حاسمة لجهة القضاء عليهم وخلق العدمية فيهم، ونقرأ غير نص في هذا الكتاب يبحر في تاريخ القدس ويصور الحالة العجائبية التي وصلت اليها وكيف ان الجميع نسي الاسوار والقباب والاجراس.

كما تطالعنا نصوص صوفية عميقة التأمل بلغة فارهة وجديدة تنسرب في كل ما نرى أو نحس او نشتهي. باختصار انه كتاب جامع وماتع وشمولي يهجس بالحرية وينحاز الى الثوابت والاصول ويقارع الاستغلال والبشاعة والاحتلال، كل ذلك بعين ناقدة تكشف بجرأة بالغة عن جذور اسباب التخلف والتراجع والانكفاء.

وقال الأديب علي الخليلي عن «كشكول الذهب» : كتب كثيرة وحديثة، واخبار ومقالات ودراسات متنوعة، يقرأها المتوكل طه على مدار الساعة التي لا تتوقف تحت عينيه وبين يديه أبداً.ثم يختار منها ما يختاره على معيار العصر، بعناية المفكر وشفافية الشاعر ودقة الباحث، وامانة الوازن، ليدفع بهذه المختارات إلى متن هذا الكتاب الذي يسميه «كشكول الذهب»، تسمية تليق بما اختار، وبالمعنى الصوفي أو الإنساني للذهب المقصود صفاءً ونقاءً، وبالهدف الساعي إليه، في سياق البلاغة العربية القادرة على اللياقة الفذة، وعلى المعنى النبيل».

ومضى الخليلي في يقديمه قائلاً:»وإلى جانب المختارات التي تكاد أن تغني قارئها المعاصر، عن التنقيب في بطون القديم وبطون الجديد، جرياً وراء مبتغى، بما اشتملت عليه هي ذاتها من مبتغى مكثف وجاهز بامتلاء وثقة، للتثاقف من كل رأي وفكر، تتدفق قصائد ومقاطع من قصائد ونصوص جديدة للمتوكل نفسه، في النسيج المختار، ذهباً على ذهب».

ويشير الخليلي إلى أن المتوكل طه يرسم لنا في هذا الكتاب، طريقاً لثقافة ذات بعد حداثي مغاير لمصلحة الوعي المتجدد والقائم على الحوار والجدل بين الذات والآخر، أو بين «أنا» و «هو» في الشعر وفي القصة والحكاية والخبر والتعليق والتحليل، وفي الغموض الآسر بما يكتنف من أسرار المدنفين، وفي الوضوح اليومي الباهر والمنبثق من شريان التحدي».

ويخلص الخليلي إلى القول :»كتاب يمتلك الحكمة، والمتعة الوجدانية، ضمن فضاء ذهنية متوثبة للمعرفة المتعددة، وللمعلومة المتنوعة، على امتداد الكون، بقدر ما هو في الأساس، هذا الكون الواسع والشاسع في المكان وفي الزمان للبشر أجمعين، هو نفسه فلسطين التي نقرأها على هذا الهدي المبين، في كل عصر، وعند كل امة».

أما الكاتب والناقد المعروف، الدكتور إبراهيم السعافين، فكتب عن الاصدار الجديد قائلاً :

«كشكول الذهب» للمتوكل طه نمط جديد من الكتابة، يبدو نصاً جديداً تتمثل فيه الكرنفالية أصدق تمثيل؛ فقد حضرت فيه اللغة بكل مستوياتها، وحضرت الاقتباسات والتناصات، حضر الفكر الساطع ولاحت التلميحات التي لا تغيب عن الدلالة الكلية للسياق، تعددت السياقات والمجالات والعلاقات، ولكنها اجتمعت كما يجتمع الكل في واحد، تجلت لغة التراث وتوهجت لغة الحداثة في آن معاً». ويمضي د.السعافين قائلاً :»يذكرك –»كشكولَ الذهب» – بالبصائر والذخائر، ويقف بامتياز مع النص الحداثي العابر للأجناس. تتقاطع الرؤى وتتوحد: الوطنية والقومية والإسلامية والإنسانية في انسجام ووعي لا تمتلكه إلا القلة العارفة من أبناء هذا الوطن وأبناء هذه الأمة».

ويضيف :«هذا الكشكول الذي منحه صاحبه صفة تعرف نفسها بنفسها في السياق تتوهج فيه الحكمة والكشف الصوفي ولغة العشق الذي يمتد من العذرية والأفلاطونية إلى لغة الجنس الحسية التي تغادر سياقها الأصلي للتوحد مع الجمال المقدس والوجد الحار المنبثق من اشتعال اللغة. في هذا الكشكول تتعانق حكمة الأجداد مع العيش في وهج الممارسات اليومية في رحلة الأمس الممتدة في تجربة اليوم انسجاماً واختلافاً».

ويتابع قائلاً :«لقد ذابت الاقتباسات التي تدل على ثقافة الكاتب الواسعة، على تعدد مجالاتها، في جسد النص، وبدت في دلالتها على العصور والثقافات والشخوص تتفاعل مع جوهر النص الأخاذ، دون أن تهمها الصورة كثيراً. ولقد بدت قضية المتوكل طه في بؤرة هذا النص المختلف شكلاً ومضموناً؛ إذ ارتفعت من كونها قضيته الشخصية اليومية إلى قضية وجودية كونية إنسانية بلغة تحز بالسكين... وتتضافر معها في كل قضايا الحق والعدل والحكمة متقطرة في الجوهر الإنساني».

ويخلص د.السعافين إلى :»المتوكل طه يمتلك في هذا الكتاب جرأة غير عادية في الرؤية والفكر والمضمون واللغة، وأعتقد جازماً بأننا اليوم في أشد الحاجة إلى هذا الصوت المختلف الذي يحاور عقولنا ويتماهى مع وجداننا، وينكأ جراحنا الغائرة التي نتوهم برأها تحت غبار النسيان بمبضع الحكيم الخبير. ولا يحتاج قارئ هذا الكتاب للبحث عن موقف الكاتب الساطع الناصع، فالصفحات الأخيرة تفصح عن موقفه بلسان مبين».

وقال مختتماً :»إن القارئ يعيش مع هذا النص الجميل مرارة الواقع ودهشة السؤال وخيبة الإنسانية المعذبة في بحثها عن إجابة حضارية لجوهر المأساة الإنسانية الذي يغيب تحت حجب صفيقة من وهم الثقافة والحضارة والعدل والسلام العالمي وحقوق الإنسان».

مسلسل "لورنس العرب" وتقديم مرحلة انهيار الدولة العثمانية دراميا برؤية عربية جديدة

مشهدان من المسلسل

عمان- مهند الصلاحات -يقدم المخرج ثائر موسى شخصية لورنس العرب، في عمله الدرامي الجديد الذي سيعرض في شهر رمضان، بشكل مختلف عما سبق تقديمه سينما هوليود سابقاً، حيث سيبدأ تصوير العمل في بداية شهر تموز الحالي، عن سيناريو للكاتب «هوزان عكو» وسيتم تصويره في أكثر من ١٦٠ موقع في كافة أنحاء سوريا.

حيث يعتبر العمل الذي ينتجه ويوزعه (star tv film) وشركة طارق زعيتر وشركاه، بحسب ما صرح مديرة الإنتاج في العمل صلاح طعمة، أن المسلسل عبارة عن إعادة قراءة للتاريخ عن فترة ١٩١٤ إلى ١٩١٨ من وجهة نظر عربية خالصة، مشيراً بذات الوقت أن العمل يشارك مجموعة من الفنانين السوريين من بينهم: جهاد سعد، مرح جبر، رنا أبيض، زهير رمضان، عبد الرحمن أبو القاسم، مازن ناطور، سعد مينة، عبد الحكيم قطيفان، فيصل العميري، صباح عبيد، عمرو القاضي، سلاف معمار، حسان يونس، و٢٠٠ شخصية أخرى. في حين يدير التصوير الفرنسي فرانسوا كوبي، ويرافق فريق العمل فريق الماكياج الإيراني.

في حين أشار طارق زعيتر منتج العمل، إلى أن المسلسل الملحمة، هو عبارة عن قصة من التاريخ القريب لم تتجاوز القرن من الزمان، والذي تتميز قصته بتنوع أحداثها بين المجتمع العربي البدوي والمدني، والإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية البريطانية، وهي عبارة عن مزيج المتناقضات الفريدة من نوعها حيث نعيش مع هذا الجندي الإنجليزي البسيط الذي يقود الثورة العربية من عمق الصحراء إلى قمة المدنية، وينجح في مهمته بإقناع القادة الإنجليز بإرسال الإمدادات والدعم حتى تمكنت قبائل الجزيرة العربية بتحقيق استقلالها عن الأتراك. وهذا المسلسل يُقدم بعدة لهجات من اللغة العربية، حيث اللهجة البدوية، الشامية، وبعض الحوارات باللهجة العراقية والمصرية، وكذلك هناك بعض الكلمات أو الحوارات باللغة الإنجليزية و التركية.

ويضيف زعيتر: إن أهمية هذا العمل لا تنبع فقط من ضخامة الإنتاج وعدد الفنانين المشاركين، فأهمية كذلك تنبع من أهمية الشخصية التي يقدمها برؤية جديدة، وهي شخصية لورنس العرب صاحب الكلمة القصيرة المدوية التي قال فيها: «كل الرجال يحلمون». مشيراً أننا في العمل سنكون حيال رجل حالم منذ البداية، لكنه أيضاً يملك من الطموح والهمة والعزم ما يجعله يسعى إلى جعل حلمه حقيقة ملموسة ومتألقة تحت الشمس..

يبدأ العمل من عام ١٩١٤، الذي كان عاما يشهد غليانا في العالم أجمع. فأوربا على أعتاب الحرب العالمية الأولى، والإمبراطورية العثمانية تحشد قوتها لمعركة حاسمة أخيرة لحماية إمبراطوريتها العجوز من الانهيار، والبريطانيون في مصر والشام يتربصون بها ويزرعون شبكات التجسس. كان توماس أدورار لورنس لا يزال يعمل مساعداً في عمليات التنقيب عن الآثار، شمال سوريا. في الوقت الذي نجحت فيه شبكة آل آرنسون اليهودية الإستخبارية في زرع ابنتهم الصغرى سارة في قلب مركز الحكم التركي في بلاد الشام بعد أن باتت العشيقة الأبرز لحاكم بلاد الشام والحجاز حينها جمال باشا، تلك كانت الفترة التي عكف لورنس فيها على تحسين معرفته باللغة العربية.

بدأ نجمه يلمع حين أمر اللورد كتشنر بعمل مسح عسكري شامل في سيناء، حيث تم استدعاء لورنس من كركميش للمشاركة في المهمة، لإضفاء الطابع الأثري –وليس العسكري على أبحاثها– فذهب لورنس في أول مهمة له برفقة صديقه العربي المذهل داحوم. وانطلقت عملية المسح في وقت مبكر من عام ١٩١٤، وبعد أن أنهى لورنس مهمته هناك عاد مع صديقه في رحلة إلى القلاع في بلاد الشام. ثم بدأت الحرب العالمية الأولى، عاد بعدها لورنس مرة أخرى من لندن للمنطقة العربية في يونيو ١٩١٦، والتقى الشريف وبعد مرور ثلاثة أشهر من اندلاع الثورة العربية الكبرى، لتبدأ من هناك الأحداث الأكثر أهمية في حياة لورنس والتي حملته في ما بعد ليدخل التاريخ، مروراً بعدة مفاصل هامة في الثورة العربية كعلاقة لورنس بالملك فيصل وما كانت تربطهما من طموحات متماثلة فيما يتعلق بالمزيد من التطوير للثورة العربية والانطلاق بها قدماً، وكذلك التطورات التي شهدتها الثورة مثل ظهور بطل عربي جديد يتمثل بزعيم قبائل الحويطات المخضرم الشيخ عودة أبو تايه، الذي بدا للورنس مقاتلاً يحمل هالة القرون الوسطى الرومانسية.

وصولاً إلى الأيام الأخيرة التي قضاها لورنس في دمشق، والتي تكشفت الخديعة التي تعرض لها العرب من البريطانيين الذين تنكروا لفيصل وللعرب، فوجد لورنس نفسه وحيدا منبوذا من حلفاءه العرب ومخذولا من حكومته، ولم يعد أمامه غير مغادرة دمشق خائبا بعد أن نضبت الينابيع الرئيسية للحركة العربية بالنسبة له، تاركا وراءه ذكريات أليمة و مبهجة من حرب دخلها حالما وخرج منها مخذولاً مزيناً برداء الخديعة.

صفد . . . إليك اكتب . . عشقا!!

نورة عبد المهدي صلاح

ها أنا أكتب إليك مرة أخرى، واجهت عنادا طويلا من قلمي الذي لازَمني منذ وقت طويل للتعبير عن كل اعتراك بالوريد.

للقلم كبرياء كما الروح التي أحمل، كان يوماً عادي، عادي جدا!! كما الأيام التي مرت والتي قد تأتي!!

يوم من أيام الصيف الحارة، أحرقتني. تأففت قليلا، ثم تناسيت هذا الجو المليء بالحرائق، كما تناسيت كل الدخان المنبعث من آلاف السنين، هناك حيث آلاف الأرواح تحت ركام الذكريات المنسية على بُعد فرسخات قليلة من أروحنا التائهة.

للمرة الأولى يتفجر التاريخ أمام ناظري، يهجم على ذاكرتي الخجلة من سنين مرت لم أتذكر نسمات الدم الرازح تحت قدمي، تواطأت مع الحياة لأنسى أشلاء اللحم المتساقط مني هنا وهناك، وودعت دموعا تحجرت برمال عيني، وسلخت جلدي عن جسدي، فلم يعد ملمس الدموع يحرقه أو يثير فيه إحساس.

َطرقتَ صورتها بابي، وصوتها الأنثوي الغض، أحيى بداخلي صورة فتاة رقيقة لأبدأ بكتابة أسطورة الأنثى الخارقة التي اجتاحت قلبي وسكنت فيه منذ النظرة الأولى، عشت معها بمخيلتي الهاربة دقائق عشق ما اكتملت بل؛ تاهت بين أنين صوتها وبريق عينيها وهي تملي علي واقعنا المرير.

«تابعت»، فأشفقت عليها مما هي فيه، أعطتني دروسا في الحب والغرام، وعشق تسلل في الوريد ما استطعت التطهر منه.

كانت أشبه بقديسه تصلي صلاتها في محرابها، وصوتها يجرحني، يهدمني حينا، ويبنيني حينا أخر.

صفد، لن أسميك إلا «صفدا»، حتى لو كنت (بيان شبيب)، اسمحي لي أن أخاطبك بهذا الاسم الذي اخترت، فروحي عشقت هذا الاسم، فقد مثلت صفد أمام عيني، كانت تسكنك، بنسائمها، برمانها، بسحر عشاقها، كنت الأرض التي ترعرت فيها غصون المحبة فأينعت براعم الحب في جوانبها، خجلة كحبة تفاح حمراء، أو متدلية كقطف عنب يستطيب النظر إليه، كنت زهية كما هي (صفد)...

أثناء العرض، تابعت خطواتك الواثقة، وندى الجبين يقطر عسلا، طردت شرور نفسي بابتسامة أشرقت على روحي كما إشراقه الشمس على عروسك يا حيفا، شممت عرقك وعطرك، كان يذكرني بخيوط الماضي المترهل بأحزاني التائهة، قلبت كياني، قلبت ذاكرتي، قلبت إحساسي بالأشياء، ملكت أجزائي وسافرت بي حيث أنين امي، وجسد أبي، وأشلاء دميتي وصغيرتي وكل دنياي..

بالعرض المسرحي الذي قدمه مسرح عشتار في مدينة الخليل يومي (الإثنين والثلاثاء الموافق ٧–٢٠٠٨/٧/٨) بعنوان (صفد وشاتيلا – من وإلى) بأداء رائع قدمته (بيان شبيب) علمتني التاريخ كيف يكون، علمتني العشق كيف يكون، وغسلت روحي بدموع استجديتها طويلا، ففاضت بها روحي أخيرا فكيف لا أهواك..

منذ اللحظة الأولى التي دخلت بها المسرح، تسلل لنفسي شعور بالإطئنان والرهبة، هذا التناقض يلازمني حتى بما أشعر! صدمتني أيتها الفتاة، بحزامك الناري المتفجر، تساءلت أين أقف الآن؟، ها أنا ذا أوجه قنبلة موقوتة.

نظراتك متجمدة تخفي وراءها أمواج هادرة، تسربت للنفس ضحكة ساخرة« لو كنت جندي احتلال، لأخذت وسام شرف، واعتقلت كل من في المكان حتى هذا الهواء، فهو شريك بالجريمة«..

فكم من أوسمة الشرف نالها جنود الاحتلال، سّبكت من ماء عيوننا نياشين نصر على أكتاف الضباط والمتحزلقين، بصقت ضحكاتي الساخرة، فذاك ليس أوانها ولا مكانها.

تنشقت الهواء المكتوم بالمكان، غصت روحي بأجزاء رسمتها يدك على خشبة المسرح بتراب الأرض، لم تدركي أنك نحتيها بأظافرك بقلبي، ليتك أدركت حجم اتساع عيوني لأرى أرضي هناك بعيدة عني قريبه منها كلما مددت يدي إليها تبتعد، آه صفد، أنت هنا ولا أدركك!!.

بعد العرض، تركت المكان، بدأت أرسم بخطواتي درج بيتي المهدم بصفد، سافرت لأصلي ب« جامع السوق»، واتجهت يمينا بانحدار باتجاه الشرق، حيث بيارة جدي، رائحتها كانت تشدني بأحلك الظروف، مليئة بالخوخ والمشمش والبرتقال، ولا أدري كيف ومتى أصبحت أسير بين أزقة ضيقة؟!

نهرتني ضجة الأطفال، لأستفيق من حلمي، أنت بالمخيم يا بني، دق أنين الألم برأسي، ارتفع الدم لعروقي، تشنجت روحي، وبكيت حد الامتلاء، بلادي تسكنين فؤادي، تنبشين بأظافرك روحي، تصرخي.، ت .. ت ..

ستغادرين المدينة يا (بيان شبيب) لترسمي خطواتك بإتجاة (مدينة جنين) لتقدمي عرضك صفد.. شاتيلا، من وإلى، مرة أخرى سأباركك، وأبارك خطواتك، فقد أبدعت، وتركتني وحدي أواجه قسوة الحلم بليل المخيم البارد.